سُورَةُ طه

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾.

﴿طه﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة، وعليه الجمهور، وعن ابن عباس معناها يا محمد، وقيل معناه يا رجل لأنه لما نزل الوحي عليه، اجتهد في العبادة حتى كان يراوح في الصلاة بين قدميه لطول قيامه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره أن يخفف على نفسه.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي ما أنزلناه لتتعب نفسك، وتحملها على الرياضة الشاقة، والشقاءُ شائع في معنى التعب، أو لتتعب نفسك بالمبالغة في مكابدة الشدائد، في محاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم، بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلت فلا عليك كفرهم.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع، أي لكن أنزلناه تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة، ويتأثر بالإنذار، وتخصيصها بهم لأنهم المنتفعون بها.

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسماوات العالية، والعُلى جمع العليا تأنيث الأعلى، وصف السماوات به لتأكيد الفخامة، مع مراعاة الفواصل.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي هو الرحمن، فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية، للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى، وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته، كما في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ﴾ أي هو جلَّ وعلا العظيم الشأن، الذي علا فوق العرش علوّاً يليق بجلاله.

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء، والسحاب، والطيور، أي له وحده دون غيره كلُّ ذلك، ملكاً وتصرفاً، وإحياءً، وإماتة ﴿ وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أي ما وراء التراب، ذكره مع دخوله في قوله ﴿وَمَا فِي ٱلأَرضِ﴾ لزيادة التقرير، والثَّرَىٰ: الترابُ النديُّ فإن لم يكن نديّاً فهو تراب.

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته لجميع الكائنات، أي وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي ما أسررته إلى غيرك، أو ما أخطرته ببالك، وأخفى منه، وفيه تنبيه على أن شرع الذكر

والدعاء، والجهر فيهما، ليس لإعلام الله تعالى، بل لغرض آخر، من تهذيب النفس بالذكر، ومنعها عن الاشتغال بالتوافه، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك المنعوت بما ذُكر هو اللهُ عز وجل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو واحد بذاته، وإن افترقت صفاته، رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمن، قالوا ينهانا محمد أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، وهذا رد لقولهم الفاجر، ثم قال: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن، وفضلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن، لدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾؟ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وهذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وهذا قول الكلبي، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: قد أتاك، وهذا قول مقاتل.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً، رُوي أن موسى عليه السلام، استأذن شعَيباً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر، ليزور والدته وأخاه، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها، لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى

جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة شاتية، شديدة البرد، فأخذ امرأته الطلقُ، فولدت له ابناً، وتفرقت ماشيته فجعل يقدح زنده فلا يوري، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من جانب الطور وكانت نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي أقيموا مكانكم، أمرهم بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه، والخطاب للمرأة، والجمعُ للتفخيم، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها والإيناسُ: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار، بنى الأمر على الرجاء، لئلا يَعِدَ بما ليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ نار مقتبسة، وهي المراد بالجذوة في سورة القصص، والقَبَسُ: بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقَّد في شجرة خضراء، ولم يجد عندها أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النارُ تغيِّر خضرتَها، ولا خضرةُ الشجرة تُغيِّر ضوءَ النار، فلما دنا سمع تسبيح الملائكة، وأُلقِيت عليه السكينة، فعند ذلك ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ كرَّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلِّم؟ فقال: أنا ربك، فعرف أنه كلام الله عزَّ وجلَّ، لأنه سَمِعه من جميع جهاته الست، وسَمِعه بجميع أعضائه، وذلك ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره سبحانه بذلك، لأن الحفوة تواضعٌ وأدب، ولذلك كان السلف يطوفون بالكعبة حفاة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لشرف البقعة وقدسيتها، روي أنه

عليه السلام خلعها وألقاها وراء الوادي ﴿طُوًى﴾ وهو اسم علم للوادي ومعناه: بالواد المقدس، المسمى طوى، أي جبل الطور.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، وهذا يدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق، بل باختياره تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي للذي يُوحى إليك، وفيه نهاية الهيبة والجلال، كأنه قيل له: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهَّب له.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدل ما يوحى، ولا ريب في أن اختياره ليس لهذا الوحي فقط ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ وحِّدني وأطعني، ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ خُصت الصلاة بالذكر، وأفردت بالأمر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة، لفضلها وشرفها، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد، أعظم من الصلاة، أي حافظ على الصلاة، وأقمها على الوجه المشروع لتذكرني فيها، وتبقى دائم الصلة بربك، قال مجاهد: إذا صلى العبد ذكر ربه لاشتمالها على جملة الأذكار وقيل: معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، لما رُوي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً فلْيصلِّها إذا ذكرها، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾[1]». قال أبو حنيفة: يجب الترتيب في قضاء الفوائت، ودليلهُ هذه الآية.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٣٢٤٨ وهو طرف من حديث طويل في قصة رجوع النبي ﷺ من غزوة خيبر، ونوم الصحابة عن صلاة الفجر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥/١٩٣.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي القيامة كائنة لا محالة، وإنما عبر عنها بالإتيان، تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، قيل: معناه قَرُبَ الأمرُ من الإخفاء[1] ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض، أي لتجزى كل نفس بسعيها، من خير أو شر.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ ﴾ أي فلا يصرفنك ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعة، وعن تصديقها، والخطاب لموسى عليه السلام والمراد به أمته ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي من لا يصدّق بها، وهذا ـ وإن كان بحسب الظاهر ـ نهياً للكافر لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام، عن الانصداد عنها، كقوله: لا أرينك ههنا، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإن ذلك سببٌ لصدهم إياه، كأنه قيل: لا تكن رخواً، بل كنْ في الدين شديداً وصلباً، فإنَّ صدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعف الإيمان، فينبغي للمؤمن أن يكون راسخاً في دينه ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه، من اللذات الحسية الفانية ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك، فإن اتباع الهوى مستتبع للهلاك لا محالة.

---

(١) الأظهر كما قال جهابذة المفسرين أن المعنى: إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس، واختاره الإمام الطبري وهو الأظهر والأوضح، لأن «كاد» للمقاربة، قال المبرِّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته حتى عن نفسي، اهـ.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ ما استفهامية تتضمن استيقاظاً لما سيظهر فيها من العجائب، فمن أراد أن يُظهر من الشيء الحقير، شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على السامعين، ويقول لهم: هذا الشيء الفلاني، ثم إنه يظهر لهم صفته الفائقة، ليكون عندهم أروع وأبهر، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ نسبها إلى نفسه، تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياء ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أي أخبط بها الورق وأسقطه على رؤوس غنمي فترعاه ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي حاجات أخرى غير ذلك، وأراد بها ما كان يستعمل فيه العصا في السفر، كأن يحمل بها الزاد، ويشدَّ بها الحبل، ويستقي بها الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ونحو ذلك، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال، بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة، علم أنها آيات ومعجزات، أحدثها الله تعالى فذكر على التفصيل، وقيل: إنما فصَّل ذلك تلذذاً بخطاب رب الأرباب، والمقام مقام مباسطة، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ لترى شأنها بما لم يخطر ببالك.

﴿ فَأَلْقَىٰهَا ﴾ على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جانّاً تارة، وهي الحية الصغيرة، نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة وهو أكبر ما يكون من الحيات باعتبار المنتهى، وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين، وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة والسرعة، لا في صغر الجثة.

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ ﴾ فإنه عليه السلام لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها، والحكمة فيها لتكون معجزة لموسى عليه السلام ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ أي هيئتها، المتقدمة، أي سنعيدها عصا كما كانت.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ أُمر عليه السلام بذلك، بعدما أخذ الحية، أي أدخلها تحت عضدك، فإن جناحي الإنسان جنباه، كما أن جناحي العسكر ناحيتاه، مستعار من جناحي الطائر، وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وفي آية أخرى ﴿وأدخل يدك في جيبك﴾ لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان كمن قد ضم يده إلى جناحه ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي من غير عيب وقبح، كنّى به عن البرص، كما كنّى بالسوأة عن العورة، لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه، روي أنه عليه السلام كان آدم يعني أسمر اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها نور ساطع يضيء كشعاع الشمس، ثم إذا ردَّها عادت إلى لونها الأول بلا نور ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي معجزة أخرى، دالة على صدقك سوى العصا.

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ أي لنريك بعض آياتنا الكبرى.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذهب بهاتين الآيتين، إلى فرعون الجبار، فادعه إلى عبادتي، وحذّره نقمتي ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ تعليل للأمر، أي جاوز الحدَّ في التكبر، والعُتوّ، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وإنما خص فرعون بالذكر، مع أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، لأنه كان متبوعاً.

فلما أمر بما أمر به، وعرف أنه كلف بأمر عظيم، يحتاج إلى صدر فسيح، تضرع إلى ربه. فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ سأله أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الحقّ، وأحوال الخلق، حليما حمولاً يستقبل ما عسى يَرِد عليه من الشدائد والمكاره، ويتلقاها بصدر فسيح.

﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ وسأله أن يسهِّل عليه أمره، الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولُها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع.

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام لُكْنة[1]، من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذات يوم، فأخذ لحيته فنتفها فغضب، فتشاءم منه وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا

(١) لُكْنةٌ: أي عِيٌّ وثِقَلٌ في اللسان، يصعب معه الإفصاح في الكلام.

يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرهما بين يديه، فأخذ الجمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، وصارت فيه عقدة.

﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ أي كي يفقهوا قولي، أي يفهموا كلامي.

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلّفته.

﴿ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ هَٰرُونَ ﴾ عطف بيان لوزير ﴿ أَخِى ﴾ بدل من هارون، وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً.

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ أي قوِّ به ظهري.

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير، وليس المراد بالتسبيح والذكر، ما

يكون منهما بالقلب، وفي الخلوات، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، وذلك مما لا ريب في تأثيره، في حالي التعدد والانفراد، ولفظُ ﴿كَثِيراً﴾ في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف، أي ننزهك عما لا يليق بك، من ادعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك، من صفات الكمال، تنزيهاً كثيراً.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً، من جملته زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، لنخلص من شرّه وطغيانه.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي عالماً بأحوالنا، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا، وما دعوناك به يصلحنا ويفيدنا، في تحقيق كلفته من إقامة الرسالة.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ ﴾ أي أعطيت ﴿ سُؤْلَكَ ﴾ أي مسؤولك والمراد بالإيتاء تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له البتة، فكلها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها مترقباً بعد، كتيسر الأمر، وشد الأزر ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ تشريف له بشرف الخطاب، إثر تشريفه بقبول الدعاء.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، وذكرُ تلك النعم بلفظ المنة، ليعرف

موسى أنها بمحض الكرم والإحسان، وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي في وقت غير هذا الوقت.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ المراد بالإيحاء الإيحاء بواسطة المَلَك كما أوحى إلى مريم، أو بالإلهام كالإيحاء إلى النحل، أو الإراءة في المنام ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي، من الأمر بقذفه في التابوت، وقذفه في البحر، أُبهِمَ أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه، ثم فُسّر ليكون أقرَّ عند النفس.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي بأن اقذفيه، ومعنى القذف هنا: الوضع، وأما في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالمراد الإلقاء في البحر، وهذا التفضيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ﴾ لا القذف بلا تابوت. ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل، أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه عاقل مطيع، أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر للمكلف بالتنفيذ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير «العدو» للمبالغة، والإشعار بأن عداوته له، مع تحقيقها لا تؤثر فيه، وما هو سبب للهلاك صورة، يشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوري، روي أنها جعلت في التابوت قطنا محلوجاً ووضعته فيه ثم قيَّرته أي طلته بالزفت وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير، فدفعه الماء إليه، فأتى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا الصندوق فإذا فيه صبي من

أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبَّه حباً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ التنكير للتفخيم أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، ولذلك أحبَّك عدوُّ الله ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره وألقيت عليك محبة لتحبَّ ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي لتربى بمرأى مني، بحفظي ورعايتي، فأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعى الرجل بعينه إذا اعتنى به.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ أي حين تمشي أختك وتَتَّبع أثرك حتى تصل إلى قصر فرعون. ﴿فَتَقُولُ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبوله ثديها، يروى أنه فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل، لا يرتضع ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أختُه لتعرف خبره، فجاءتهم متنكرة فقالت: هل أدلكم على امرأة أمينة ترضعه لكم؟ فجاءت بأمه فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: إنا رادّوه إليك ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور، المعبر عنه بقرة العين ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي الكافر الذي استغاثه الإسرائيلي عليه قيل: كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء وخلصناك مرة بعد أخرى من ضروب الابتلاء والامتحان، منها نجاته من الذبح، ثم إلقاؤه في البحر، ثم أخذ لحية فرعون، ثم قتل القبطي، ثم الهجرة، وكلها

ضروب من الابتلاء ﴿فَلَبِثْتَ﴾ مكثتَ عشر ﴿سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيها النداء، وفي كلمة «ثمَّ» إيذان بأن مجيئه عليه السلام، كان بعد ضلال الطريق، وتفرق الغنم، في الليلة المظلمة، وغير ذلك ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي على تقديرٍ قدَّرته لأن أكلِّمك، وأستنبئك، في وقت قد عينته لذلك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له وتنبيه على انتهاء الحكاية.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون، مؤيداً بأخيه بعد تذكير المنن السابق، أي اصطفيتك برسالاتي وبكلامي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي وليذهب أخوك معك حسبما طلبت ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها من اليد، والعصا، ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترا ولا تقصِّرا، والوَنَى: هو الفتورُ والتقصير ﴿فِى ذِكْرِى﴾ عند تبليغ رسالتي، فإن الذكر يقع على جميع العبادات، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمدا بذكري العون والتأييد.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جمعهما مع غيبة هارون، للتغليب، روي أنه تعالى أوحى إلى هارون بمصر، أن يلتقي بموسى عليهما السلام، ويذهبا إلى فرعون الطاغية الجبار.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً، لأن تليين القول، مما يكسِرُ سورة عناد العُتاة، ويلين عريكة الطغاة، ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ ﴾ بما بلغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغبتماه فيه ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ عقابي، والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾[1] الآية.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب، إيذاناً بأصالته في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام له ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ ﴾ أي يعجِّل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة، وإظهار المعجزة، والفَرَطُ بفتحتين: المتقدم في طلب الماء، والإفراطُ: الإسرافُ وتجاوزُ الحد ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ أي يزداد طغياناً فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لجرأته وقساوته وفجوره.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخَافَآ ﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾ تسلية لهما، والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأنا حافظ لكما من شره، والحافظ إذا كان كذلك تم الحفظ.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١٣٤.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي اذهبا فادخلا عليه بأمري ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، وليس المراد بتكليفهم أن يذهبوا معهما إلى بلد آخر ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا من العذاب، فإنهم كانوا في أيدي القبط، يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، ويستخدمون نساءهم ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ المستتبع لسلامة الدارين ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ بتصديق آيات الله تعالى، الهادية إلى الحق، وليس المراد منه «سلام التحية» بل معناه السلامة على من أسلم واتبع الحق، وفيه ترغيب في اتباعهما على ألطف وجه.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ من جهة ربنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآيات الله وبالرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف في الوعيد ما لا يخفى، حيث لم يصرح بحلول العذاب به.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون بعدما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ لم يضف الرب إلى نفسه لغاية عتوه، بل أضافه إليهما، لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل، بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين﴾ كما وقع في سورة الشعراء، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق، أي إذا كنتما رسولَيْ ربكما، فأخبراني من ربكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما، لما أنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مجيباً له ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ﴾ لم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط، حسبما أراد اللعين، بل جميع المخلوقات، أي أعطاه صورته وشكله اللائق، بما نيط به من الخواص والمنافع، فخلق اليدَ للبطش، والرِّجلَ للمشي، واللسانَ للنطق، والعين للنظر، والأذنَ للسمع، ونحو ذلك، واستدل عليه السلام على إثبات الصانع، بأحوال المخلوقات، فإنه تعالى خلق الخلق، وأتقن الصنعة، حيث أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي إليه ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي هداه إلى طريق الانتفاع بما أعطاه، وعرَّفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، إما اختيارياً كما في الحيوانات، أو طبعاً كما في الجمادات والنباتات، ولما كان الخلق متقدماً على الهداية، وسّط بينهما كلمة التراخي ﴿ ثُمَّ ﴾ ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بيّن أنه تعالى عالم، قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعم عليها بجميع ما يليق بها، بطريق التفضل، ولذلك بهت الذي كفر، وخاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته، فأراد أن يصرفه إلى ما لا يَعْنيه بطريق المغالطة.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم من الحوادثِ مما لا دخل له بمنصب الرسالة، فلم يلتفت موسى عليه السلام، إلى ذلك الحديث، بل قال:

﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ﴿ فِى كِتَٰبٍ ﴾

أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطىء ابتداء، ولا يذهب عليه بقاء، بل هو ثابت أبداً في اللوح المحفوظ وليس لحاجته تعالى في العلم به إليه.

ولقد أجاب عليه السلام بجوابٍ عبقري بديع، حيث كشف حقيقة الحق، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده، من بيان شؤونه تعالى، ثم تخلَّص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله تعالى، ما يثبت الألوهية والربوبية فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعلها كالمهد تمتهدونها، وتستقرون عليها، وهو مصدر سمي به المفعول، أي جعل كل موضع مهداً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طريقاً بين الجبال، والأودية، والبراري، تسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي أنزل لكم من السماء المطر عذبا فراتاً، أحيا به العباد والبلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي فأخرجنا بهذا المطر الذي أنزلناه من السماء، وإنما التفت إلى التكلم، للتنبيه على ما فيه، من الدلالة على كمال القدرة، والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأدىٰ إلا من قادرٍ، مُطاعٍ، عظيم الشأن، تنقاد لأمره الأشياء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ أي أنواعاً من النباتات المختلفة في أشكالها وأنواعها ﴿شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة يعني أنها مختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، والنفع.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا منه أصناف النباتات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين بذلك لكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في شؤونه تعالى وأفعاله ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة جليلة، واضحة الدلالة، على شؤون الله تعالى: ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ جمع نُهْية[1]، سُمّي به العقلُ، لعقله ونهيه عن اتباع الباطل، وتخصيص كونها آيات بهم، باعتبار أنهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام وقيل: خلقنا أبدانكم من النطفة، المتولدة من الأغذية الحاصلة من الأرض بوسائط ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العناية بها، وتفخيم شأنها، أي وبالله لقد أبصرنا فرعون ﴿آيَاتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ كما أظهر له أموراً أخرى ﴿كُلَّهَا﴾ أي أريناه جميع الآيات بحيث لم يبق له في ذلك عذر ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعونُ موسى عليه السلام، بعد ما شاهد الآيات، جوراً وعناداً ﴿وَأَبَىٰ﴾ من الإيمان والطاعة.

---

(١) النّهيةُ: العقلُ جمعها نُهَىٰ مثل مُدْية ومُدَىٰ.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا ﴾ الهمزة لإنكار الواقع، والمجيء لدعوتنا إلى ربك أي أجئتنا بعدما غبتَ عنا، وأقبلت علينا ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من مصر ﴿ بِسِحْرِكَ ﴾ بما أظهرته من السحر ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ وهذا دليل على أنه خاف منه عليه السلام، وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني اسرائيل، بل إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمى ما أظهره من المعجزات «سحراً» لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادَّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ اللام جواب القسم كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينَّك بسحرٍ مثل سحرك ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي وعداً ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴾ وإنما فوَّض اللعينُ أمر الوعد إلى موسى عليه السلام، للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، ولإظهار الجلادة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بالضم أي وسطاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، أي مكاناً وسطاً مستوياً، حتى يشاهده كلُّ الحاضرين[1].

---

(١) هذا ما اختاره الإمام ابن جرير الطبري، أن المراد بقوله تعالى: ﴿مكاناً سُوَى﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي مسافته على الفريقين، واختار ابن كثير أن معنى: ﴿مكاناً سُوى﴾ أي بمكان معيَّن، ووقتٍ معيَّن.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ أي موعدنا للاجتماع في يوم العيد، وكان يوم عيد لهم، يزينون فيه الأحياء والدور، وهو يوم النيروز، وإنما عيَّنه ليظهر الحق، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين الناس، لأنه عليه السلام كان على ثقة من أمره، وعدم مبالاته بهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي وقت الضحوة، ليكون أبعد من الريبة، وأبين لكشف الحق.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ﴾ أي ما يكيد به من السحرة، وكانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي، ﴿ ثُمَّ ﴾ إيماءٌ إلى أنه لم يسارع إليه، بل بعد تلعثم.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن تدَّعُوا آيات الله تعالى سحراً، كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ فيهلككم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ أي هائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، كائناً من كان، أو وقد خاب فرعون المفتري، فلا تكونوا مثله في الخيبة، وفيه تعريض بفرعون الجبار، المدعي للألوهية، والمفتري على الله.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه فتنازعوا ﴿ أَمۡرَهُم ﴾ الذي أريد منهم، من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ في كيفية المعارضة ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ أي من موسى عليه السلام، وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض سراً ﴿ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ تفسير لنتيجة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بِسِحۡرِهِمَا ﴾ أي أن يغلبا عليكم بطريق السحر، وكأن السحرة تلقفوا هذه من فرعون ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار دينهما عليكم، يريدون به ما كان عليه قوم فرعون، ويسمونه ديناً لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، «والمثلى» تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ﴾ تصريح بالمطلوب أي إذا كان الأمر كذلك، فأزمعوا كيدكم، واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف واحد منكم ﴿ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ ﴾ أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ أي قد فاز بالمطلوب من غلب، قالوه حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة، للانتصار على موسى.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ الفاء فصيحة، معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء، أي فألقوا فإذا حبالهم تتحرك وتسعى على بطونها، حتى يظنها موسى من عظمة السحر، أنها حيات تسعى، وإنما خيَّروه ببدئهم أو بدئه، لثقتهم بالغلبة عليه، لأنهم كانوا قد بَرَعُوا ومَهَروا في السحر.

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ الإيجاس: استشعارُ الخوف، أي وجد في نفسه خوفاً، بمقتضى الطبيعة البشرية، المجبولة على النفرة من الحيات.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي لا تخف مما توهمت ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي فإنك أنت المنتصر الغالب.

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ أي ألق عصاك التي بيمينك، وإنما أوثر الإبهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصيّ المعهودة ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ بالجزم جواباً للأمر أي تبتلع ما صنعوه من السحر، من لَقفه إذا ابتلعه بسرعة، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير،

والعربُ تقول في الكذب: هو كلام مصنوع ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أي إنما افتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس، لأن السحر صنعة خسيسة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي حيث كان، وأين أقبل.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أي فخروا سجداً لله رب العالمين حين رأوا تلك الآية الباهرة، وأشهروا إيمانهم بالله.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ أي قبل أن أسمح لكم ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في فنكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم، فلذلك غلبكم، فهذه شبهةٌ زوَّرها اللعين، وألقاها على قومه، لمَّا اعتراه الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي عليها، وإيثار كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ﴾ يريد فرعون نفسه، وربَّ موسى الذي آمنوا به ﴿عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم، فإن قيل: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية، كيف يعقل أن يهدد السحرة؟ قلنا: إنه كان في أشد الخوف في قلبه، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة تمشية لملكه، وترويجاً لأمره، فإن كثيراً من العجزة، قد يفعل أمثال هذه التهديدات الفارغة.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿ قَالُوا﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من المعجزات الظاهرة، فإن ما ظهر من العصا، كان مشتملاً على معجزات جمة، فإنهم عارفون بجلائلها ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي لن نؤثرك وحقّ الذي فطرنا، وهو قسم بعزة الله وجلاله ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده أي فاصنع ما أنت صانعه بنا ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى﴾ تعليل لعدم المبالاة بوعيده، أي إنما ينفذ حكمك في ﴿ هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وهي فانية زائلة، ورغبتنا في النعيم الدائم.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه، بإكراهك لنا، وحشرنا من المدائن القاصية ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي في حد ذاته ﴿ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي جزاءً وثواباً، وهذا جواب لقوله ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر أو المعاصي ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى، وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿ قَدْ

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في الدنيا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات ﴿ لَهُمُ ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان، المجرد عن العمل الصالح، في استتباع الثواب، لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة، هو الفوز بالدرجات العلى، لا بالثواب مطلقاً، وهل التَّشاجرُ إلا فيه، فسائر الدرجات لا بد أن تكون لغيرهم من أهل الإيمان.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من الدرجات ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أي ماكثين في الجنان على الدوام ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أوتي لهم ﴿ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي، بالإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى، وقيل: هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ طوى في البين ذكر ما جرى عليهم، من الآيات الظاهرة على يد موسى عليه السلام، بعد ما غلب السحرة في نحو من عشرين سنة، حسبما فصّل في سورة الأعراف ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ والتعبير عنهم بكونهم عباداً له تعالى، لإظهار الرحمة، والاعتناء بأمرهم، أي وبالله لقد أوحينا إليه أن أسر بعبادي من مصر ليلاً ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ ﴾ أي فاتخذ لهم ﴿ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أي يابساً مصدر وصف به الفاعل للمبالغة، أي يابساً ليس فيه ماء ولا طين ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أي آمنا من أن

يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق، وتقديم نفي الخوف، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه، حيث قالوا إنَّا لمدركون[1].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي تبعهم بجنوده، روي أن موسى خرج بهم أول الليلة، فأخبر فرعونُ بذلك، فأتبعهم بعساكره، فلحقهم بحيث تراءى الجمعان، وقال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كالطود العظيم، فَعَبر موسى بمن معه سالمين، وتَبِعهم فرعون مع جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدرُه، وهو من جوامع الكلم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أدَّاهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي وما أرشدهم قط، ولا هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله الفاجر: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن قيل: كيف اختار فرعون إلقاء نفسه وعسكره إلى التهلكة؟ قيل: إن جبرِيل عليه السلام كان على فرس، فتبعه فرس فرعون، وهذا بعيدٌ لأن المَلك لا يخوض في أمثال هذه المواضع، بل الأولى أن يُقال: غلب على ظنه السلامة، فأمر بالدخول في البحر.

---

(١) فإن قيل: الخوف والخشية مترادفان، فلماذا غاير بينهما؟ فالجواب: إن ذلك للبلاغة، ولمراعاة رؤوس الآيات.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى به، بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم، وإفاضة فنون النعم الدينية والدنيوية عليهم أي قلنا يا بني إسرائيل ﴿ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ فرعون وقومه ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ أي واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانبه الأيمن لمناجاة موسى، وإنزال التوراة عليه، وإنما نسبت المواعدة إليهم وهي لموسى، نظراً إلى سراية منافعها إليهم ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ وقلنا لهم.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ وفي البدء بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية، من حسن النظم، ولطف الترتيب، ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حدَّ الله لكم فيه ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي ﴾ أي فيلزمكم عذابي، ويحلُّ عليكم سخطي ﴿ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ أي تردَّىٰ وهلك وشقى الشقاء الدائم.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ ﴾ من الشرك والطغيان ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أي عملاً مستقيماً موافقاً للشرع والعقل ﴿ ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ أي استقام على الهدى، وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان، وحثٌّ له على التوبة والإيمان، وإشارة إلى أن من لم يستقم على الهدى، فهو بمعزلٍ من الغفران، ويؤكده قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾

والتوبة، والإيمانُ، والعملُ الصالح، قد يتفق لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة عليه.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى من الكلام، عند ابتداء موافاته الميقات، بموجب المواعدة المذكورة أي وقلنا له: أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك؟ أي عن السبعين الذين اختارهم، وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء، لما في ذلك من إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم ولذلك أجاب عليه السلام، بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب، حيث قال:

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ يعني أنهم معي وخلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ أي وتعجلت إلى الموضع الذي أمرتني به، لترضى عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، والعجلة مذمومة إلا أنها ممدوحة في الدين، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل، من بعد ذهابك من بينهم، وهم الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ باتخاذ العجل، والدعاء إلى عبادته، وهو منسوب إلى قبيلة يقال لها السامرة، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف، وما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ ﴾ أي شديد الغضب عليهم ﴿ أَسِفًا ﴾ أي حزيناً بما فعلوا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾؟ بأن يُعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾؟ أي زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه؟ ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؟ من مالك أمركم على الإطلاق، ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ أي وعدي بالثبات على ما أمرتكم به، إلى أن أرجع من الميقات.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ أي ما أخلفنا وعدنا إياك ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ أي بإرادتنا واختيارنا بأن ملكنا أمورنا، يعنون أنا لو خُلِّينا وأمورنا، ولم يسوّل لنا السامريُّ ما سوّله لما أخلفناه، فقد كنا مكرَهين، والمرء إذا وقع في فتنة لم يملك نفسه ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ ﴾ اعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ﴿ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي حُمِّلنا أحمالاً من حُليّ القبط، التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر، وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها عند الخروج، ولعل تسميتهم لها أوزاراً، لأنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا في حكم المستأمنين، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحلُّ حينئذٍ ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ أي في النار رجاء، للخلاص عن ذنبها ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ أي ما كان منها معه، روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت، قال لهم السامري: إنما أخلف

موسى ميعادكم لما معكم من حليّ القوم، وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفرة، ونسجر فيها ناراً، ونقذف كلَّ ما معنا فيها ففعلوا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمْ﴾ أي للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ من تلك الحلي المذابة ﴿جَسَدًا﴾ من ذهب لا روح له ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ أي صوت عجل، لأنه جعل فيه منافذ ومخاريق، بحيث إذا دخل فيه الريح، صوَّت كصوت العجل ﴿فَقَالُوا﴾ يعني السامري ومن افتُتن به أول ما رآه ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي غفل عنه، وذهب يطلبه في الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها، لا من جهة القائلين، وإلا لقيل فأخرج لنا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ إنكار وتقبيح، من جهته تعالى، لحال الضالين والمضلين جميعاً، فيما أقاموا عليه من المنكر، الذي لا يشتبه بطلانه على أحد، والفاء للعطف على مقدر، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي كلاماً، ولا يردّ عليهم جواباً، فكيف يتوهمون أنه إله؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فإن قيل: كيف يعقل رجوع ستمائة ألف إنسان عن دين الحق دفعة، إلى عبادة العجل، الذي يُعرف فسادها بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع رجعوا برؤية موسى عليه السلام وحده؟ قلت: هذا غير ممتنع في حقّ البُلْه من الناس، وهؤلاء لا يعرفون الدين، وإنما أفكارهم وآمالهم منحصرة في المنفعة الدنيوية، فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً، والتقم كل ما جَمَعه السحرة، ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السحرة بأن

ذلك ليس بسحر، ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم انفلاق البحر، ثم أنجاهم الله من الغرق، وأهلك أعداءهم، ثم إن هؤلاء لما خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون البقر، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ﴾ قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفنتم نبيَّكم حتى اختلفتم؟ فقال: «اختلفنا عنه، وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفَّتْ أقدامكم من ماء البحر، حتى قلتم لنبيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» وذلك يدل على شكهم وضلالهم في الدين.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ ﴾ جملة قسمية، مؤكدة لما قبلها من الإنكار، ببيان عتوّهم، واستعصائهم على الرسول، إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي وبالله لقد نصح هارون نبيهم، على كنه الأمر وحذَّرهم من ضلال السامري ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ ﴾ أي قال لهم يا قوم إنما ابتليتم بالعجل وفتنكم به السامري، فألقى بكم في الفتنة لا الإرشاد ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا العجل، فاقتدُوا بي وأطيعوا أمري، إرشاد لهم على الحق، إثر زجرهم عن الباطل، والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ أي فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ هذا واتركوا عبادة العجل، وإنما قال هارون عليه السلام ذلك، لأنه كان مأموراً بالنهي عن المنكر، فقابلوا هذه النصيحة بالسَّفه.

﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿ عَٰكِفِينَ ﴾ أي مقيمين ملازمين ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ جعلوا رجوعه غاية لعكوفهم بطريق

التسويف، ولما قالوه اعتزلهم هارون مع الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون، أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ ﴾ وهو مغتاظ ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ ﴾ أي أيَّ شيءٍ منعك، حين رأيتَ ضلالهم، من أن تتبعني، في الغضب لله تعالى، ومقاتلة من كفر به؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾؟ بالصلابة في الدين، وبالقيام لمصالحهم.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ خَصَّ الإضافة بالأم، استعطافاً وترقيقاً لقلبه، أي يا أخي ويا بن أمي ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ ﴾ أي ولا بشعر رأسي، وكان موسى عليه السلام شديداً، متصلباً في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أي إني خفتُ إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم، فيسفكوا الدماء ويقتل بعضهم بعضاً وكما خشيت لو قاتلتُ بعضهم ببعض، وتفرَّقوا ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي أشعلت الفتنة بينهم، وأراد عليه السلام بالتفريق، ما يستتبعه القتال من التفريق بين صفوف بني إسرائيل، وتمزيق وحدتهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي وتقول: لم تنتظر أمري فيهم، يعني إني رأيتُ أن الإصلاح في حفظ الدماء، والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتدارك للأمر،

لا سيما وقد كانوا في القوة، ونحن على القلة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد، فلمَّا فرغ من مخاطبة هارون، وعرف العذر، أقبل على السامري.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾؟ أي ما مطلوبك مما فعلت؟ وما الذي حملك على ذلك؟ خاطبه بذلك، ليظهر للناس بطلانَ كيده، باعترافه.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي السامري مجيباً له ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ القبضةُ: المرَّةُ من القبض، أي قبضت حفنةً من التراب، من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار. وعامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول «جبريل» عليه السلام، وروي أنه كان رأى أن جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، إلى موسى، ليذهب به إلى الطور، وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه، يخرج من تحته النبات، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطىء قدم الفرس، حفنةً من التراب ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي في الحلي المذابة، فكان ما كان ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي زينته وحسَّنته لي نفسي، فاتبعت هواي، لا لشيء آخر من البرهان العقلي، أو الإلهام الإلهي.

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للسامري ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ﴾ أي ثابت لك في الحياة ما عشت، عقوبةً على ما فعلت ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي لا يمسُّني أحد ولا أمسُّه، وذلك أنه تعالى، رماه بداءٍ عقام، لا يكاد يمسُّ أحداً، أو يمسه إلاَّ حمَّ من ساعته، حمى شديدةً، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس وحُرِم من المكالمة والمعاملة مع الناس، وصار أوحش من القاتل، ومن الوحش النافر ولعلَّ السر بتلك العقوبة، أنه لما أنشأ الفتنة، لجمع الناس عليها، وإبعادهم عن دين الله، عوقب بما يضاده، من العزلة عن الناس، وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام قال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً إلى البراري، وهذا أحسن وأقرب إلى النظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي دمت على عبادته مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لنذرينه رماداً ﴿فِى الْيَمِّ﴾ أي في البحر كأنه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عينٌ، ولا أثر، ولقد فعل ذلك كلَّه، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به، تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في الوعد، المؤكد باليمين، فلمَّا فرغ عليه السلام من أمر العجل، رجع إلى بيان الدين الحق، فقال مخاطباً لبني إسرائيل:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحقُّ للعبادة ﴿اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم وبه تم حديث موسى عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ إشارة إلى حديث موسى، أي مثل ذلك الاقتصاص البديع نقصُّ عليك ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية، تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ أي كتاباً مذكّراً، منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار، وتنكيرُ ﴿ذِكْرًا﴾ للتفخيم.

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الذكر العظيم، المستتبع لسعادة الدارين، وأعرض عن الله عز وجل ﴿ فَإِنَّهُۥ ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾ أي عقوبة ثقيلة فادحة، على كفره وذنوبه، سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، بالحمل الذي يُفدح الحامل، وينقض ظهره.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ ﴾ أي خالدين في ذلك العذاب، بسبب الوزر الذي حملوه ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أي بئس لهم حملاً وزرهم.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم يُنفخ في الصور ﴿ زُرْقًا ﴾ أي حال كونهم زرق العيون وسود الوجوه، وإنما جُعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العيون وأبغضها إلى العرب، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسودُ الكبد، وأزرق العين.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة، لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ أي ما لبثتم ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي عشر ليال في الدنيا، استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لمَّا عاينوا الشدائد.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ أي يسألونك عن مآل أمرها يوم القيامة وقيل: لم يُسأل وتقديره: إن سألوك، ولذا قُرن بالفاء ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي يدعها ﴿ قَاعًا ﴾ خالياً ﴿ صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ مستوياً كأنها على صف واحد والقاع: المستوي من الأرض.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا ﴾ أي في الأرض، والخطاب لكل أحد ﴿ عِوَجًا ﴾ أي اعوجاج ما ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي ارتفاعاً، والأمتُ المكان المرتفع، وقيل: النتوء اليسير.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ أي يتبع الناس الداعي إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس عند النفخة الثانية، ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، قومي إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه بل يستوون إليه ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ أي خضعت ﴿ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾ هيبة ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي لا تسمع إلاَّ صوتاً خفياً والهمس: أخفى الصوت.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قول الشافع في شأنه، وأما ما عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فُرض صدورها عن الشفعاء فكأنه قال تعالى: لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً مرضياً.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جلَّ وعلا.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ أي ذلَّتْ وخضعتْ خضوع العُناة ـ وهم الأسارى ـ في يد الملك القهار، وجوه الخلائق جميعاً للواحد القهار،

وقيل: وجوه الكفار، كقوله تعالى: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: أي من أشرك، وقيل: على العموم.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي بعضاً من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فالإيمان شرط في صحة الطاعات، والحسنات ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ أيّ منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ ولا كسراً منه بنقص، وأصل الهضم: النقصُ والكسر، هضمه هضماً كسره، وهضم حقه نقصه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنزال ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن كله على هذه الوتيرة، وإضماره من غير سبق ذكره، للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ يفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أي اتعاظاً واعتباراً، مؤدياً إلى الاتقاء.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ﴾ استعظام له تعالى، ولشؤونه التي يصرف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، أي ارتفع بذاته، وتنزّه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾ النافذ أمره ونهيه،

الحقيق بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي يتم، وقد كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنُهي عن ذلك، وأُمر باستفاضة العلم، واستزادته منه تعالى، فقيل ﴿وَقُل﴾ أي في نفسك ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سل الله عزَّ وجل زيادةَ العلم، فإنه الموصل إلى طلبتك، دون الاستعجال عند تلاوة الوحي.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنف لبيان أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقه راسخ في النسيان، والمعهود محذوف، يدل عليه ما بعده، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أمرناه ووصيناه، وأوحينا إليه، بأن لا يأكل من الشجرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِىَ﴾ أي نسي العهد، ولم يعتن به، حتى غفل عنه، أي فأنساه الشيطان ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي ثبات قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك، لما أزلَّه الشيطان، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، من قبل أن يُجرِّب الأمور، وقيل: ﴿عَزماً﴾ أي على الذنب، فإنه أخطأ فيكون إلى المدح أقرب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع وتكبَّر.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿ فَقُلْنَا﴾ عقيب ذلك، تحذيراً من كيد اللعين: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيت ما فعل ﴿ عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي لا يكوننَّ سبباً لإخراجكما ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿ فَتَشْقَىٰٓ﴾ جواب للنهي، أي فتشقيان وإسناد الشقاء إليه خاصة، بعد تعليق الإخراج بهما معاً، لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه شقاءها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المراد بالشقاء: التعبُ في طلب المعاش، وذلك من وظائف الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1] أي إن لك يا آدم في الجنة ألاَّ ينالك ألم الجوع والعري، وألا يصيبك فيها العطشُ ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار الحبور والسرور، وهو تعليلٌ لموجب النهي، فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، ونفي نقائضها، التي هي الجوعُ، والعطشُ، والعُريُ، والضَّحْوُ أي الإبراز للشمس، للتذكير بتلك الأمور الجليلة في الجنة، والبعد عن أنواع الشقوة، التي حذَّره منها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

---

(١) هذه الآية الكريمة من أظهر الدلائل، وأوضح الوجوه على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي «جنة الخلد» وليست جنة في الدنيا، فإن وصفها بعدم الجوع، والعطش، والعُري وعدم حر الشمس، لا يكون إلا في جنة الخلد في السماء.

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي أنهى إليه وسوسته، أو أسرَّها إليه ﴿ قَالَ ﴾ في وسوسته ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾؟ أي شجرة من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه، فالذي رغب الله فيه آدم، رغَّبه إبليس فيه.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما، حتى ظهرت عورتهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أي ضلَّ عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان، والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا بزلة أبيكم التي أخرجته من الجنة، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر قال ابن قتيبة: يجوز أن يُقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال: خاط ثوبَه، ولا يقال هو خياط، حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عنه عليه السلام إلاَّ مرةً واحدة، وإنما وقعت قبل النبوة، فلم يجز بعد أن قَبِلَ الله توبتَه، وشرَّفه الله تعالى بالنبوة هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر[1].

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

(١) هذا وجه بديع في التوجيه لمعصية آدم، وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» فقد وضحنا بالتفصيل المسألة، وبينا الوجوه الشرعية في بحث «عصمة الأنبياء».

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة، وفي التعرض لعنوان الربوبية تشريف له ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِلَ توبتَه حين تاب ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي وهداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلة: انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض أولادكم عدو لبعض في أمر المعاش والكسب، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والجمعُ لما أنهما أصل الذرية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة، فإن قيل: المتبع لهدى الله، قد يلحقه الشقاء في الدنيا؟ قلنا: المراد لا يضل في الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا مانع منه وفيه الأجر.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي أعرض عن الهدى والإيمان، واتباع الرسل الكرام ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً، وذلك لأنه تعالى يسلب عنه القناعة، والتوكل، فتكون همته مقصورة، على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، فعيشته ضنكٌ وحالته مظلمة، بخلاف المؤمن القانع، المتوكل، فإنه يعيش عيشاً طيباً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ﴾ الآية، ويوسع ببركة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهلَ القُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

بَرَكاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾[1] وقيل هو عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى البصر لأنه تعامىٰ في الدنيا عن آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي في الدنيا.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسره بقوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ واضحة نيرة ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعميت عنها وتركتها ترك المنسي ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل تركك إياها ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمى والعذاب جزاءً وفاقاً.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بانهماك في الشهوات ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ﴾ بل كذّب بها وأعرض عنها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الإطلاق ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أشدُّ من عذاب الدنيا، وأدوم لعدم انقطاعه.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والمعنى: أفلم يبين لهم مآل

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

أمرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في مساكنهم وديارهم، أو حال كونهم ماشين في مساكنهم، إذا سافروا، مشاهدين لآثار هلاكهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إن في إهلاك هذه الأمم الباغية، وفي آثار دمارهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ كثيرة، عظيمة، واضحة ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي الوعد بتأخير عذاب هذه الأمة، لحكمة تقتضيه ﴿لَكَانَ﴾ عقاب جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لهم، بحيث لا يتأخر، واللزام مصدر لازم وصف به مبالغة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أجل مسمى لهلاكهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفَصلُه عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب لولا، ولاستقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب[1].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فاصبر على ما يقولون من الكفر، والتكذيب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمالك، على هدايته وتوفيقه ونزهه عما ينسبونه إليه، مما يليق بشأنه الرفيع، معترفاً أنه مولى النعم كلها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي ومن ساعاته، والمراد به

---

(١) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخّره لتعتدل رؤوس الآيات.

المغرب والعشاء، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً﴾ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أمر بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي سبح في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى، ما ترضى به نفسك، ويسر قلبك وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ أمر الله تعالى عقيب الصبر بالتسبيح، لأن ذكر الله يفيد السلوة والراحة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم ونعذبهم في الآخرة بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادَّخره لك في الآخرة، وما رزقك إيّاه في الدنيا، من النبوة والهدى ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه أجلُّ، ومأمون الغائلة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته بالصلاة بعد ما أمره بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ داوم عليها فإن الوعظ بالفعل، أبلغ من القول ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ

رِزْقًا﴾ أي لا نكلفك أن ترزق أحداً ولا أن ترزق نفسك بل نحن نتكفل برزقك ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وأهلك، ففرِّغ بالَكَ لأمر البعثة والآخرة ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لأهل التقوى وكان النبي ﷺ إذا أصاب أهلَه ضرٌّ، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية وليس في الآية رخصة في ترك التكسب، لأنه تعالى قال في وصف المتقين ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية، حكى عن شبهتهم، فكأنه من تمام قوله تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ﴾ أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، أو بآية مما اقترحوها، بلغوا من المكابرة والعناد، إلى حيث لم يعدّوا ما شاهدوا من المعجزات، التي تخر لها صمم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾؟ من أخبار الأمم، أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، عجلنا لهم العذاب، وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أم الآيات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة، اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها، إذ هو أصل الأعمال، ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين، على يد أمي لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً أصلاً، فأي معجزة بعد هذا القرآن؟.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها، من كون القرآن بينة لا يمكن إنكارها، ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ مستأصل ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل إتيان البينة أو من قبله ﷺ ﴿ لَقَالُوا۟ ﴾ يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَسُولًا ﴾ مع كتاب ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ التي جاءتنا ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَنَخْزَىٰ ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ أي المستقيم ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟ ليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد، والزجر للكفار، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه».

* * *